فلقد كان خَجِلاً من أنه كان يرجو رحيل «ماني»، بل من أنه كان على وشك أن يطلب منه ذلك. وكان المشهد الذي يحياه يملأ نفسه بالمرارة، مرارة سوف يحملها معه، وكان يستشعر ذلك حقّاً، حتى آخر حياته. أفلم يكن قد احتفظ طَوال سنوات بالصورة المؤاسية لصديقه وهو يناقِص من نوى التمر في مقصف بستان النخيل؟ وها هو ذا الآن مقتنع بأنه سوف يتذكّر بعد عشرة أعوام، عشرين عاماً، بخجل كامل وبالمرارة نفسها، اليومَ الذي كان قد طرده فيه من منزله. طرده؟ إنه لم يطرده، وليس في عيْنَيْ «ماني» أيّ لوم؛ بيد أن «الصُّورِيّ» لن يغفر لنفسه أبداً غياب مروءته. ما العمل إذن؟ هل يستبقي الابن والأب، ويخاطر بخسارة كل شيء، بيته وتجارته وكلّ ما بناه منذ وصوله إلى (المدائن)؟.

هكذا نشأت في ذهنه رويداً رويداً، ومن غير أن يعترف بذلك لنفسه، الفكرةُ السخيفة، الفكرة الشاذّة. وأسرع بكنسها من خاطره فعادت مُلِحّة.

كان «مالكوس» ينظر، مُمْتَقِع الوجه، حزيناً، يُرثى له، إلى ضيفيه وهما يجمعان متاعهما القليل، عندما أقبلت «كْلُوويه». وبلمح البصر، ومن غير أن تكون قد سمعت أدنى تفسير، كانت قد فهمت ما يجري: رحيل الضيفيْن وصراع الزوج مع نفسه. وشملتهم جميعاً بنظرة حنان ثم انتحت بهذا الأخير جانباً.

ـ إذا كنتَ تفكّر في مرافقتهما بعضَ الطريق فلا تتردّد. فعلى الرغم من سنّ هذين الرجليْن فإنهما ليسا سوى طفليْن، فهما لا يعرفان شيئاً عن الطرق ولا عن الرحلات، ولسوف يضلاّن من غيرك.

وجد «مالكوس» نفسه واقفاً وحافلاً فجأة بالنشاط وكأنه لم يكن ينتظر إلاّ هذه الكلمات. وقال بمرح:.

ـ هلمّ ننطلق! سأطلب من الخدم إعداد المطايا.

بعضَ الطريق، قالت زوجته؟ إن «مالكوس» سيظل يتساءل بعد سنوات طِوال كيف أمكن أن يخوض بمثل هذه الخفّة تلك المغامرة.

* * *